الحالة السياسية في عصر المماليك وأثرها على الإمام علاء الدين البخاري

الباحث: حمودة أحمد إسماعيل محمد

الملخص:

تناول هذا البحث الحالــة السياسية في عصر المماليك وأثرها على الإمام علاء الدين البخاري، وتنبع أهمية هذا البحث من كونه عمل على مناقشة الحالة السياسية فى عصر الإمام علاء الدين البخاري في عصر المماليك من خلال تناول عدد من سلاطين المماليك، واستخدم هذا البحث المنهج التاريخي التحليلي بغية الوصول لعدد من النتائج، والتي من أهمها أن الإمام علاء الدين البخاري لم يكن منعزلاً عن مجتمعه بل كان متابعاً لحركة المجتمع السياسية، وقد كان للإمام علاء الدين البخاري مواقفه مع السلاطين والأمراء التي يعود أثرها على الناس في عصره فكان مثالاً يحتذى به، كما كان للإمام علاء الدين البخاري جهود في منع الفساد الأخلاقي، وقد عقد مجلساً مع القضاة لبحث الفساد السياسي الحاصل في بعض المناسبات.

الكلمات المفتاحية: الحالــة السياسية، عصر المماليك، الإمام علاء الدين البخاري.

The political situation in the Mamluk era and its impact on Imam Alaa al-Din al-Bukhari

Abstract:

This research dealt with the political situation in the Mamluk era and its impact on Imam Alaa al-Din al-Bukhari. The importance of this research stems from the fact that it worked to discuss the political situation in the era of Imam Ala al-Din al-Bukhari in the Mamluk era by dealing with a number of Mamluk sultans. This research used the historical and analytical approach in order to Reaching a number of results, the most important of which is that Imam Alaa al-Din al-Bukhari was not isolated from his community, but rather

he was a follower of the political movement of society. Imam Alaa al-Din al-Bukhari had his positions with the sultans and princes, which had an impact on the people of his time, so he was an example to follow, just as the Imam had Aladdin Al-Bukhari made efforts to prevent moral corruption, and he held a council with judges to discuss the political corruption that occurs on some occasions.

Keywords: the political situation, the Mamluk era, Imam Alaa al-Din al-Bukhari.

المقدمة:

لا فرق بين مملوك على مملوك إلا بالقوة، كانت الجملة السابقة هي الدستور الأهم والمنطق والحاكم للسياسة المملوكية، فالقوة والقوة وحدها كانت الفيصل والحاكم للمعادلة السياسية إبان هذا العصر، وفي الحقيقة فقد شهد العصر المملوكي الكثير من الصراعات والفتن بين الأمراء والمماليك، أو بينهم وبين السلطان، وكان لهذه الصراعات أثرها على أفراد الشعب إما بالسلب أو بالإيجاب.

كما ضعفت الخلافة الإسلامية في عصر المماليك، مما أدى الى ضعف المسلمين وكان في ذلك العصر يوجد به علماء منهم الإمام علاء الدين البخاري الذي شهد على هذا العصر، حيث عاشت الدولة الاسلامية في ضعف وتمزق وانقسامات، كما ذكر المؤرخون أن البلاد قد قاست كثيراً في عصر دولة المماليك من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك وفرقهم وما كان ينجم عن تلك المنازعات من حوادث وقتال في الشوارع، مما أوجد جوا من الرعب والفزع وعدم الاستقرار في البلاد، وكذلك ما كان يفرضه السلاطين على الناس من الضرائب والمكوس.

لذلك نجد أن الإمام علاء الدين البخاري عاش بين مصر وبلاد الشام ومن خلال هذا البحث نتعرض للحالة السياسية في عصر المماليك الجراكسة وأثره على الإمام علاء الدين البخاري.

منهج البحث

استخدم هذا البحث المنهج التاريخي التحليلي بغية الوصول لعدد من النتائج التي توضح الحالــة السياسية في عصر المماليك وأثرها على الإمام علاء الدين البخاري.

الدراسات السابقة

تعددت الدراسات التي تناولت الحالة السياسية في عصر المماليك على النحو التالي:

١. دراسة يوسف راشد رشدان المطيري (٢٠٢٢). بعنوان: " منطق القوة ودوره في صراع الأمراء في عصر سلاطين المماليك: قراءة في آليات السياسة والسلطة في مصر في العصر المملوكي". مجلة الاستواء، العدد (٢٣)، ص ص٩١-١٤٢، حيث أظهرت تعدد مشاهد الصراع وتوظيف منطق القوة، ومن المثير أن العوام وجدوا أن أحداث الفتن والصراع متنفساً ومنفذاً لهم للانتقام من أمراء المماليك الذين أساءوا التصرف معهم، وفرصة شرعية لتحقيق الانتقام والثأر لفقرهم وحاجتهم.

٢. دراسة حسن فرحان عبدالساتر عطية (٢٠٢٠). بعنوان: "منصب إمرة العرب وأثره في السياسة الداخلية لبلاد الشام عصر دولة المماليك البحرية (٦٥٨-٧٨٤ هـ/ ١٢٦٠-١٣٨٢م)"، العدد (٣٣)، الجزء (٩)، ص ص ١٠٥٣٦-١٠٦٣١، حيث أظهرت دور إيجابي تمثل في قيامهم بواجباتهم المكلفين بها، ومساعدة سلاطين المماليك في القضاء على بعض حركات تمرد وعصيان الأمراء المماليك المنشقين عن الدولة، ودور سلبي تمثل في الصراع بين أعراب الشام على هذا المنصب، فقاموا بالعديد من حركات التمرد والعصيان، وما ترتب على ذلك من قطع الطرق على التجار والحجاج، والتهديد باللجوء إلى المغول أعداء الدولة، كما قاموا بمساندة بعض نواب الشام المتمردين الراغبين في الانفصال عن الدولة، الأمر الذي كلف الدولة الكثير من الجهد لإخماد هذه الحركات، وأثر على أمنها واستقرارها.

٣. دراسة كريم عجيل حسن (٢٠١٤). بعنوان: "سياسة الأسرة العامرية وأثرها في قيام عصر المماليك في الأندلس ٣٦٦- ٣٩٩ هـ/ ٩٧٦ – ١٠٠٨، مجلة جامعة الانبار للعلوم الإنسانية، العدد (١)، ص ص١٢٥-١٦٠، حيث أدت إلى ظهور ممالك عديدة على مسرح الحياة السياسية في الأندلس، اتسمت علاقاتها بالنزاعات العسكرية، التي كانت جميعها خاسرة.

٤. دراسة نوف محمد الحازمي (٢٠١٠). بعنوان: "أثر الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية على الحياة العلمية في عهد المماليك الجراكسة". رسالة ماجستير، جامعة أم القرى.

أسباب اختيار البحث:

- ندرة الدراسات السابقة التي تناولت الحالــة السياسية في عصر المماليك وأثرها على الإمام علاء الدين البخاري.
- انعكاس وتأثير الحالة السياسية في شخصية الإمام علاء الدين البخاري.

أشكالية البحث

تعددت الأحداث السياسية في عصر المماليك بصفة عامة وفي عهد الإمام علاء الدين البخاري بصفة خاصة، مما أدى بالباحث إلى دراسة الحالة السياسية التي أثرت على الإمام علاء الدين البخاري في هذه الفترة.

أهمية البحث

تتضح أهمية البحث الحالي من خلال ما يلي:

- أبراز الحالة السياسية في عصر المماليك.
- بيان ضعف الدولة الاسلامية وما حدث من خلافات في عصر المماليك.
- التعرف على الحالة السياسية في بلاد الشام ومصر خلال عصر المماليك.
- اظهار انعكاس وتأثير الحالة السياسية في شخصية الإمام علاء الدين البخاري.

المبحث الأول: المماليك البحرية والمماليك الشراكسة

يرجع تاريخ دولة المماليك البحرية (٦٤٨-٧٩٢هـ/ ١٢٥٠-١٣٩٠م) إلى مؤسسها السلطان نجم الدين أيوب الذي أتى بالمماليك وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة عام ٦٣٨هـ، وتنقسم دولة المماليك البحرية إلى أسرتين وهما أسرة الظاهر بيبرس البندقداري الذي حكم مصر مدة ١٧عاماً، ويعتبر هو المؤسس الحقيقي لدولتهم، حيث قام بالعديد من التعديلات الإدارية ومنها إعادة إحياء الخلافة العباسية ونقل مقرها إلى القاهرة عام ٦٥٨هـ، وأسرة المنصور قلاوون حيث يعتبر حكم الناصر محمد بن قلاوون الذي قارب على نصف قرن من الحكم أزهى عصور المماليك البحرية وقد تعاقب على حكم مصر بعد الناصر محمد العديد من الحكام وكانوا غالبيتهم صغار

السن فيتحكم بهم قادة الجيش (الأتابكة) وظل الحال كذلك إلى أن ظهر الأمير برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة (البرجية)[١].

وأسس المماليك الجركسية دولتهم عام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م من خلال سيف الدين برقوق، وتعود جذورهم إلى عهد المنصور قلاوون الذي استعان بهم كثيرا في جيشه، وكانت هذه الفرقة مواليه له عندما أصبح جنرال عسكري، وأصبح أحد هؤلاء المماليك الشركسيين، برقوق، أهم وأقوى رجال الدولة. ويمثل صعوده إلى العرش بداية السلالة المملوكية الجركسية. كما كانوا يسمون برجي (المستمدة من "برج) المماليك، حيث احتلوا القلعة وأبراجها، وحكم المماليك الشركسي مصر لمدة ١٣٥ سنة تقريباً من خلال ٢٣ من السلاطين بالتناوب، وكانت هزيمة السلطان طومان باي إيذاناً ببداية العهد العثماني[٢].

ويتضح مما سبق أن الإمام علاء الدين البخاري قد ولد حسب ما ورد في الكتب التي ترجمت له عام (٧٧٩هـ) وتوفى عام (٨٤١هـ)، مما يعنى أنه ولد وعاش ومات في العصر المملوكي، وبالتحديد في فترة حكم المماليك الجراكسة أو ما يعرفون بالمماليك البرجية، وبالتالي فإن الإمام علاء الدين البخاري قد عاصر فترة المماليك الجراكسة التي شهدت مصر خلالها تقدماً معمارياً وفنياً على الرغم من أنها كانت فترة غير مستقرة.

المبحث الثاني: الحالة السياسية فى عصر الإمام علاء الدين البخاري

بداية إذا أردنا أن نتعرف على ملامح شخصية الإمام علاء الدين البخاري فلابد أولاً أن نتكلم عن بيئته التي ولد فيها، وعن عصره الذي عاش فيه فالمفكر ابن عصره كما يقال.

ومن المعلوم أن العصور الإسلامية بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد كانت عصور ضعف وتمزق وانقسامات، ففي كل بلد أمير، ولم يكن للخليفة إلا الاسم، حسبه أن يقال له أمير المؤمنين، وفي وصف هذا الحال يقول ابن حجر العسقلاني[٣]: "جاء أول القرن التاسع من الهجري سنة إحدى وثمانمائة وواحد (٨٠١هـ) وسلطان مصر والشام والحجاز الملك الظاهر أبو سعيد برقوق، وسلطان اليمن من نواحي تهامة الملك الأشرف إسماعيل بن الأفضل بن المجاهد، وسلطان اليمن من نواحي الجبال الإمام الزيدي الحسني علي بن صلاح، وسلطان المغرب الأدنى أبو فارس عبد العزيز بن الحفصي، وسلطان المغرب الأوسط المريني، وسلطان المغرب الأقصى بن الأحمر، وصاحب البلاد الشرقية تيمور كوركان المعروف بتيمور لنك، وصاحب بغداد أحمد بن أويس وأمير مكة حسن بن عجلان ابن رميثة الحسني، وأمير المدينة ثابت بن نعير، والخليفة العباسي أبو عبد الله محمد المتوكل على الله ابن المعتضد بالله أبي بكر ويدعى أمير المؤمنين ونازعه في هذا الاسم

الإمام الزيدي وبعض ملوك المغرب وصاحب اليمن ولكن خطيبها يدعو في خطبته للمستعصم العباسي أحد الخلفاء ببغداد وكان نائب دمشق يومئذ تنم الحسني، وبحلب ارغون شاه وبطرابلس أقبعا الجمالي وبحماة يونس القلمطاي، ويصفد شهاب الدين ابن الشيخ علي وبغزة طيفور"[٤].

وقد أدى هذا التمزق والتفرق إلى ضعف المسلمين حتى تسلط عليهم الأعداء من الصليبين والمغول وغزوهم في بلاد الإسلام، فقتلوا المسلمين وخربوا البلاد ونهبوا خيراتها.

أما البلاد التي عاش فيها الإمام علاء الدين البخاري فمصر والشام، وقد كانت تتبع سلاطين المماليك البرجية.

وقد نشأ هؤلاء المماليك في عهد السلطان المنصور قلاوون (ت: ٦٨٩هـ)[٥]؛ فقد أعلن أنه كون فرقة المماليك البرجية لتكون حصناً مانعاً له ولأولاده لكي يضمن بهم بقاء السلطة في يده وأبنائه من بعده، وقد أسكنهم في أبراج القلعة، فسموا البرجية تمييزاً لهم عن المماليك البحرية الذين أقاموا في جزيرة الروضة بنهر النيل[٦].

ولم يلبث أن أكثر قلاوون من شراء الجراكسة[٧] حتى بلغوا في أواخر عهده أكثر من ثلاثة آلاف مملوك، وبعد وفاة المنصور قلاوون خلفه ابنه.

الأشرف خليل (ت: ٦٩٣هـ)[٨]، فأتم بناء القوة التي أقامها أبوه المنصور– قوة المماليك البرجية– حتى أنه اشترى في حكمه القصير (١٢٨٩م– ١٢٩٣م) ما يقرب من ألفي مملوك جركسي[٩].

ومن هنا أصبح المماليك البرجية على درجة عالية من وفرة العدد وحسن التدريب وشدة التماسك، مما جعلهم ينظرون إلى كرسي السلطة.

ولقد كان من المتعزر على السلاطين المماليك أن يحتفظوا بالمماليك البرجية بعيدين عن الأحداث، لذا فقد سمح لهم السلطان خليل بن قلاوون– ولأول مرة– بمغادرة أبراجهم وطباقهم العالية والنزول إلى القاهرة ولكن بشرط أن يعودوا قبل الليل ليبيتوا بالقلعة، وقد ترتبت على ذلك ما يلي:

- انغماس المماليك البرجية في الحياة العامة ومشاكلها بعد أن خرجوا من عزلتهم واختلطوا بغيرهم من طوائف المماليك فضلا عن عامة الناس.
- أن المماليك البرجية أو الجراكسة لم يلبثوا أن استثاروا حقد بقية طوائف المماليك الأتراك بسبب ما غدا فيه المماليك البرجية من نعمة وما حظوا به عند السلطان قلاوون وابنه خليل من مكانة. وكيفما كان الأمر، فإن هذين العاملين ترتب

عليهما دخول المماليك البرجية دائرة الصراع والمنازعات التي كانت لا تهدأ لها ثائرة في ذلك العصر(١٠).

وهكذا فقد استأسد الحمل، واستنسر البغاث فرأينا المماليك البرجية– الذين جيء بهم في مبدأ الأمر لحماية وتوطيد حكم المنصور قلاوون وأبنائه– يقومون بعدد كبير من الثورات حتى ينتهي بهم الأمر إلى التربع على عرش السلطة.

وفي ذلك يقول المقريزي(١١): "إنه في حوادث سنة (٦٩٨هـ): "قويت. شوكة البرجية بديار مصر وَصَارَت لهم الحمايات الكبيرة وتردد النَّاسِ اليهم في الأشغال. وَقَامَ بأمرهم الأمير بيبرس الجاشنكير وأمر مِنْهُم عدة وَصَارَ فِي قبالته الأمير سيف الدين سلار ومَعَهُ الصالحية والمنصورية إلا أن البرجية أكثر وأقوى وشرهوا جَمِيعًا إلى أخذ الإقطاعيات ووقع الْحَسَد بين الطَّائِفَتَيْنِ وَصَارَ بيبرس إذا أمر أحداً من البرجية وقفت أَصْحَاب سلار وطلبت مِنْهُ أَن يُؤمر مِنْهُم وَاحِدًا وأخذ الأمير سيف الدين برلغي يُشارك بيبرس وسلار في الأمر والنهي وقويت شوكته والتف عَلَيْهِ المماليك الأشرفية(١٢).

إلا أن المماليك البرجية ساءت أحوالهم في السلطنة الثالثة للناصر قلاوون بعد أن أحس بخطرهم وكان قد بلغ من العمر ما مكنه من التصدي لكبار أمراء الترك الجراكسة معًا، فقبض على بيبرس الجاشنكير وقتله، وكان هذا الأخير قد خلع الناصر وتسلطن مكانه، فكرهه الناس وثاروا عليه حتى أقاموا الناصر قلاوون مكانه، ولكن ما زالت الأيام تخفض في سلطة المماليك البرجية وترفع فيها، حتى برز من بينهم أحد الأمراء، وهو برقوق الجركسي، الذي استطاع بعلو همته وطموحه البالغ أن يصل إلى منصب أتابك العسكر وذلك سنة (٧٨٠ هـ).

وكانت بداية دولة المماليك الجراكسة على يد برقوق هذا سنة (٧٨٤هـ) ففي هذه السنة كان ابتداء دولة الجراكسة، فإنه خلع الصالح القلاووني وتسلطن، برقوق، ولقب الظاهر، وهو أول من تسلطن من الجراكسة، وهو أعظم ملوك الجراكسة بلا مدافعة، بل المتعصب يقول: إنه هو أعظم ملوك الترك قاطبة رحمه الله تعالى وعفا عنه(١٣).

أما عن سلاطين الفترة التي عاصرها الإمام علاء الدين البخاري، وهي من سنة (٧٧٩هـ– إلى سنة ٨٤١هـ).

فقد تتابع بعد برقوق المماليك بالحكم، وكان غالب وصولهم للحكم بالخلع والتسلط وكان يصحب هذا الخلع والتسلط أحيانا فتن وثورات داخلية واضطرابات فتعم الفوضى وتنتهك

الحرمات، وتسلب الأموال، ويعتدي على الأعراض، ويفقد الأمن، وقد احتوت هذه الفترة على عدد من سلاطين المماليك البرجية، منهم على سبيل المثال:

١. **الناصر فرج بن برقوق:** السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن السلطان الملك الظاهر أبي سعيد برقوق بن الأمير أنص الجركسي الأصل المصري المولد والمنشأ سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية، وهو السلطان السادس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، والثاني من الجراكسة(١٤)، ولد سنة (٧٩١هـ) إحدى وتسعين وسبعمائة في أيام الفتنة التي وقعت لوالده فسماه فرج، استقر في السلطنة بعهد من أبيه إليه بعد موته في شهر شوال سنة ٨٠١هـ وسنه دون عشر سنين واختلف مماليك أبيه عليه وجرت له حروب مع المؤيد شيخ فانهزم هذا وفر على الهجن إلى دمشق فدخلها وتحصن بقلعتها فتبعه شيخ ومن معه فحاصروه إلى أن نزل إليهم بالأمان فاعتقل وذلك في صفر سنة (٨١٥هـ) واستفتوا العلماء فأفتوا بوجوب قتله لما كان يرتكبه من المحرمات والمظالم والفتك العظيم فقتل في ليلة السبت سابع عشر شهر صفر المذكور وكان سلطاناً مهيباً فارساً كريماً ومع ذلك كان ظالماً جباراً منهمكا على الخمر واللذات طامعاً في أموال الناس.(١٥).

٢. **الخليفة المستعين:** بعد مقتل فرج أصبح منصب السلطان شاعراً ولم يجرؤ شيخ المحمودي أو نوروز اعتلاوه خوفاً من ثورة أحدهما على الآخر، فأسند شيخ في مجلس عقده في دمشق العرش إلى الخليفة المستعين بالله، وهو كاره لهذا التنصيب ولكن الخليفة اشترط لقبوله هذا الأمر أن يحتفظ بمركز الخلافة إن تم خلعه من السلطنة؛ لكن سرعان ما تبين أن الخطوة كانت غير صادقة وعومل الخليفة معاملة التابع وليس السيد، وسجن في القلعة واستولى على زمام الأمور شيخ ونوروز معًا، وأغرى شيخ بحيلته صاحبه أن يطلب الإمارة على الشام وبهذا حصل على نفوذ مطلق في البلاد، وتم خلع الخليفة المستعين بالله من العرش والخلافة معاً(١٦).

٣. **المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي:** كما رأينا وصل المؤيد شيخ المحمودي إلى العرش عن طريق القوة والثورة، ولما علم نوروز بارتقائه السلطنة قام بثورة ضده مع الأمراء الآخرين في بلاد الشام الذين أقروا بحكم الخليفة المستعين بالله، لكن انتهت بأن انتصر عليهم المؤيد وقتل نوروز وعلق رأسه على باب في القاهرة، بعد أن أقسم له أنه سيبقي على حياته، ويقال انه بعد أن نكث قسمه إلى نوروز ندم وزار

حلقات الذكر للصوفية في دمشق، ويرى المؤرخون أن السلطان شيخ أعاد السلام إلى البلاد بفضل شدته وشجاعته وحسن إدارته وورعه وتقواه فقد لبس لباس الدراويش عندما أصاب مصر مرض الطاعون وسار ومعه الخليفة والقضاة وأمامهم الشيوخ رافعين المصاحف ومعهم اليهود والنصارى وسار إلى قبر برقوق وسجد السلطان ومعه الناس ووزّع بعد ذلك الطعام عليهم وصام ثلاثة أيام ودعا الله ليرسل إلى البلاد ماء النيل في وقت عم فيه الجوع والقحط(١٧).

٤. **أحمد ططر، ومحمد ططر**: تولى منصب السلطنة بعد وفاة المؤيد شيخ ابنه أحمد عام ٨٢٤هـ، وعمره حينذاك سنة وثمانية أشهر وحمل على ظهر جواد وسار في احتفال مهيب إلى قاعة الاجتماعات حيث أعلن سلطاناً ولقب الملك (المظفر)، إلا أن والده شيخ كان قد عهد إلى ثلاثة من الأمراء الكبار بالعناية بابنه وهم: الطنبغا القرمشي، وططر، وقجقار القرومي، إلا أن ططر نصب نفسه اتابكاً للعساكر، ووصياً على السلطان الصبي الصغير، ونائباً عنه في نفس الوقت، وتزوج من والدته خوند سعادات ووهب الأموال للجيش من أجل كسب ولائه وسجن المعارضين له في سجن الإسكندرية، ومع ذلك لم يبق السلطان ططر طويلاً في الحكم، ودبرت زوجته أمر قتله بعد أن طلقها غداة خلع ابنها خوفاً على نفسه منها، هذا مع تدهور صحته فعهد إلى ابنه محمد بالحكم من بعده وأشهد الخليفة والقضاة وأن يكون جانبك الصوفي(١٨) نائباً عنه وبرسباي وصياً عليه، وقد توفى السلطان ططر في ذي الحجة عام (٨٢٤هـ) بعد حكم استمر ثلاثة أشهر، وتولى العرش بعده ابنه محمد بن ططر، وعمره عشرة سنوات، ولقب (الملك الصالح)، وحدث تنافساً واضحاً بين الأميرين جانبك، وبرسباي، وقبض الأخير على الأول وأعدائه أيضاً ومن ارتاب به، وسجنهم في الإسكندرية، وأصبح وصياً على السلطان الصبي، ثم بعد ستة أشهر خلعه في عام (٨٢٥ هـ) بمساندة الأمير تبك ميق حاكم دمشق، وتولى السلطنة مكانه، ولقب نفسه (الملك الأشرف)(١٩).

٥. **الأشرف برسباي**: برسباي الظاهري السلطان الملك الأشرف أبو النصر ولي سلطنة مصر سنة: (٨٢٥هـ) وفتح مدينة قبرس(٢٠) وأنشأ بمصر مدرسة وجامعاً بسرياقوس(٢١)، وقد حكم السلطان الأشرف برسباى ما يزيد عن ستة عشر عاماً (١٤٢٢–١٤٣٨) امتازت بالاستقرار وقلة الاضطرابات على الرغم مما قاساه

الناس في ذلك العهد بسبب سوء الأحوال الاقتصادية وسياسة برسباي الاحتكارية، وقد مكن ذلك الاستقرار برسباي من القيام بمشروع حربي كبير وهو غزو جزيرة قب–رس وإدخالها في نطاق التبعية الدولة المماليك توفي سنة (٨٤١هـ)[٢٢].

المبحث الثالث: بلاد الشام ومصر خلال عصر المماليك الجراكسة

كان سكان الشام في عهد الدولة المملوكية لا يختلفون كثيراً عن سكان مصر من حيث هم خاضعون لأسر حاكمة احتكرت الوظائف، وحرمتهم المشاركة في إدارة أمور بلادهم، وكان المماليك في بلاد الشام هم أصحاب السيادة والطبقة المهيمنة على السلطة والنفوذ[٢٣].

ولم تكن الشام في عصر المماليك مجرد إقليم من الأقاليم التابعة للدولة، بل كانت أهم من ذلك، فقد كانت بلاد الشام الجناح الأيمن الذي بدونه يتعذر على دولة المماليك الاحتفاظ بكيانها وتوازنها، والثبات في وجه الأخطار الأسيوية الضخمة، التي هددت تلك الدولة حينا من جانب الأيوبيين والتتار والصليبيين، وأحياناً من جانب الأرمن والتركمان ثم العثمانيين، وقد حاول سلاطين المماليك السيطرة على هذا الإقليم الهام، وربطه بوحدة مع إقليمهم الأم مصر، كي يضمنوا مراقبة ما يحدث فيه من منازعات تؤثر في كيانهم.

ولقد استمرت بلاد الشام– على تتابع السلاطين الجراكسة– مسرحاً لكثير من الثورات والحركات التي قام بها في كثير من الأحيان المماليك أنفسهم متمثلين في بعض الأمراء الطامعين في الانفصال بالسيطرة على هذا الإقليم والانفراد به.

وقد غدت بلاد الشام في ذلك الدور مسرحا لنزاع مرير، هو في حقيقة أمره صراع بين المماليك الترك والمماليك الجراكسة حول السلطنة، وقد درس الأستاذ جاستون فيبت تراجم أربعة وسبعين نائباً لنيابة دمشق في عصر المماليك، فتبين له أن تسعة وعشرين منهم خرجوا على السلطنة وأعلنوا الثورة..[٢٤].

وبالجملة فقد كان عصر دولة المماليك الجراكسة مائة وأربعة وثلاثين عاماً، تعاقب فيها على دست السلطنة خمسة وعشرون سلطاناً، ولا شك في أن البلاد قد قاست كثيراً في عصر دولة المماليك الجراكسة من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك وفرقهم، وما كان ينجم عن تلك المنازعات من حوادث وقتال في الشوارع، مما أوجد جواً من الرعب والفزع، وعدم الاستقرار في البلاد[٢٥].

المبحث الرابع: أثر الحالة السياسية في عصر المماليك على شخصية الإمام علاء الدين البخاري

كما ذكر المؤرخون أن البلاد قد قاست كثيراً في عصر دولة المماليك الجراكسة من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك وفرقهم وما كان ينجم عن تلك المنازعات من حوادث وقتال في الشوارع، مما أوجد جوا من الرعب والفزع وعدم الاستقرار في البلاد، وكذلك ما كان يفرضه السلاطين على الناس من الضرائب والمكوس.

رغم ذلك فإن الإمام علاء الدين البخاري لم يكن منعزلاً عن مجتمعه بل كان متابعاً لحركة المجتمع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية فكان مشاركاً في توجيه كثير من الأحداث، مجتهداً ناصحاً للراعي والرعية، وقد كان للإمام علاء الدين البخاري مواقفه مع السلاطين والأمراء يعود أثرها على الناس في عصره، فكان مثالاً يحتذى، من جهة صدقه في نصح أولي الأمر مع التعفف والترفع عن الطمع في ما عند السلاطين، وقد شهد له بذلك كل من ترجم له من أقرانه كابن حجر(٢٦)، أو من أدركوه واتصلوا به كابن تغري بردي(٢٧) الذي يقول عنه: "ولم يخلف بعده مثله لأنه جمع بين العلم والعمل مع الورع الزائد والزهد والعبادة والتحري في مأكله ومشربه عن الشبهة وغيرها وعدم قبوله العطاء من السلطان وغيره وقوة قيامه في مواجهة البدع ومخاشنته لعظماء الدولة في الكلام وعدم اكتراثه بالملوك واستجلاب خواطرهم وهو مع ذلك لا يزداد إلا مهابة وعظمة في نفوسهم بحيث إن السلطان كان إذا دخل عليه لزيارته يجلس في مجلسه كأحاد الأمراء من حين يجلس عنده إلى أن يقوم عنه والشيخ علاء الدين يكلمه في مصالح المسلمين ويعظه بكلام غير منمق خارج عن الحد في الكثرة والسلطان سامع له مطيع، وكذلك لما سافر السلطان إلى أمد أول ما دخل إلى دمشق ركب اليه وزاره وسلم عليه فهذا شيء لم تره وقع لعالم من علماء عصرنا جملة كافية، وهو أحد من أدركناه من العلماء الزهاد العباد رحمه الله تعالى ونفعنا بعلمه"(٢٨).

كما شهد له من جمع أخباره وتوسع في ترجمته كالسخاوي(٢٩) الذي يقول عنه: "وإذا حضر عنده أعيان الدولة بالغ في وعظهم والإغلاظ عليهم بل ويراسل السلطان معهم بما هو أشد في الإغلاظ ويحضه على إزالة أشياء من المظالم مع كونه لا يحضر مجلسه وهو مع هذا لا يزداد إلا إجلالاً ورفعة ومهابة في القلوب"(٣٠).

وأوضح مثال على نصح الإمام علاء الدين البخاري لأولي الأمر وشدته في ذلك، ما ذكره مؤرخ الشام في القرن العاشر، شمس الدين محمد بن علي بن طولون(٣١)" أنه في ذي الحجة سنة ست وثلاثين وثمانمائة ركب السلطان– يعني برسباي الأشرف– إلى الصالحية لزيارة الشيخ علاء

الدين البخاري، فوعظه الشيخ وكلمه كلاماً غليظاً إلى أن قال: فلما رجع السلطان من عند الشيخ وقد أثرت فيه الموعظة، رسم بإبطال طرح السكر، ثم بعد قليل رسم باستمرار الطرح وأنه في العام الآتي لا يطرح شيئاً، وفي محرم سنة سبع وثلاثين نودي بمرسوم السلطان بأن يبطل طرح السكر بعد أن يكمل طرح ما بقي من هذه السنة، وأن ينقش ذلك في الجامع والقلعة ودار السعادة ناقش ذلك(٣٢).

بل إنه عندما أراد الرحيل من القاهرة وقد ترجاه السلطان في البقاء اشترط العلاء على السلطان أن يعزل القاضي البساطي من القضاء لدفاعه عن ابن عربي، وأن يبطل السلطان المكوس فلما لم يستجب له ترك مصر ورحل إلى الشام(٣٣).

بل إن السلطان كان في بعض الأحيان يتواضع ويتودد له رجاء أن يقبل أمره، ويخبر ابن حجر(٣٤) في إنباء العمر في حوادث (٨٣١هـ)، أن العلاء لما عزم على الحج في هذه السنة واستأذن السلطان فامتنع يده، فألح العلاء مرة بعدة مرة فأرسل السلطان إليه كاتب السر بدر بن مزهر، فلم يزل يراجعه إلى أن قبل بده فأطاع وأقام، وكان للإمام علاء الدين البخاري مواقف حميدة في الوقوف ضد تجاوزات المماليك المالية من فرض الضرائب على الناس وكثرة المكوس التي أرهقت كاهل الشعب المسلم، فقد صدع العلاء في وجوه السلاطين في دمشق وفي القاهرة بضرورة إزالة هذه المظالم وشدد النكير عليهم وأغلظ لهم القول(٣٥).

وكان للإمام العلاء أيضاً جهود في منع الفساد الأخلاقي، وقد عقد مجلساً مع القضاة لبحث الفساد الحاصل في بعض المناسبات، وكانت له مواقف صارمة في ذلك(٣٦).

الخاتمة:

أن التناول المكثف للحالة السياسية في عصر المماليك وأثرها على الإمام علاء الدين البخاري أظهر عدة حقائق من أبرزها ما يلي:

- ضعفت الخلافة الإسلامية في عصر المماليك الشراكسة وخصوصاً في عهد الإمام علاء الدين البخاري.
- وجود العديد من حركات التمرد والعصيان، وما ترتب على ذلك من قطع الطرق على التجار والحجاج، والتهديد باللجوء إلى المغول أعداء الدولة.
- تعدد مشاهد الصراع وتوظيف منطق القوة.

ظهور ممالك عديدة على مسرح الحياة السياسية في الأندلس، اتسمت علاقاتها بالنزاعات العسكرية.

نتائج البحث:

توصل هذا البحث لعدد من النتائج من أهمها ما يلي:

- انغماس المماليك الجراكسة في الحياة العامة ومشاكلها بعد أن خرجوا من عزلتهم واختلطوا بغيرهم من طوائف المماليك فضلاً عن عامة الناس.
- أن المماليك الجراكسة لم يلبثوا أن استئثاروا حقد بقية طوائف المماليك الأتراك بسبب ما غدا فيه المماليك البرجية من نعمة وما حظوا به عند السلطان قلاوون وابنه خليل من مكانة.
- أدى ضعفت الخلافة الإسلامية في عصر المماليك الجراكسة إلى التمزق والتفرق الذي أصاب المسلمين حتى تسلط عليهم الأعداء من الصليبين والمغول وغزوهم في بلادهم.
- المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك وفرقهم وما كان ينجم عن تلك المنازعات من حوادث وقتال في الشوارع، مما أوجد جوا من الرعب والفزع وعدم الاستقرار في البلاد، وكذلك ما كان يفرضه السلاطين على الناس من الضرائب والمكوس.

التوصيات والبحوث المقترحة:

من التوصيات والبحوث المقترحة التي خرج بها الباحث من البحث الحالي ما يلي:

- دراسة سياسية مقارنة بين عصر المماليك والعصر الذي سبقهم والعصر الذي يليهم.
- بيان جهود الإمام علاء الدين البخاري في مكافحة الفساد السياسي في عصر المماليك.
- دراسة أثر الإمام علاء الدين البخاري على الحالة السياسية في عصر المماليك.

مصادر البحث ومراجعه:

١. السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (٢/ ٢١٧، ٢١٨)، ومصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك (ص: ٢٢٣).

٢. مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك (ص: ٢٢٩، ٢٣٠).

٣. ابن تغري بردي (٨١٣– ٨٧٤ هـ/ ١٤١٠– ١٤٧٠ م) هو: يوسف بن تغري بردي بن. عبد الله الظاهري الخلفي، أبو المحاسن جمال الدين مورج بحالة من أهل القاهرة مولنا ووفاة كان أبوه من مماليك الظاهر برقوق ومن أمراء جيشه المقدمين من مصنفاته: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة والمنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، والبحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر، وغير ذلك راجع الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لشمس الدين أبو الخبر محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (٦/ ٢٠٦–٢٠٨) منشورات دار مكتبة الحياة– بيروت، والأعلام للزركلي (٨/ ٢٢٢).

٤. ابن طولون (٨٨٠– ٩٥٣هـ/ ١٤٧٥– ١٥٤٦م هو: شمس الدين د بن على بن خمارويه بن طولون الدمشقي الصالحي الخلفي، عالم بالتراجم والفقه من أهل الصالحية بدمشق، ونسبته إليها، من مصنفاته: الغرف العلية في تراجم متأخري الخلفية، وتخابر القصر في تراجم نبلاء العصر والتمتع بالأقران بين تراجم الشيوخ والأقران، والمعرة فيما قيل في المرة، وغير ذلك، راجع: الأعلام للزركلي (٦/ ٢٩١).

٥. إنباء الغمر بأبناء العمر، للأمام شهاب الدين أبى ابفضل أحمد بن على بن حجر العسقلانى (١/٤–٢)، تحقيق: د/ محمد عبد المعيد خان، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان، ط٢: (١٤٠٦هـ–١٩٨٦م).

٦. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، (٢٦/٢).

٧. البساطي (٧٦٠– ١٤١هـ/ ١٣٥٩– ١٤٣٩م) هو: محمد بن أحمد بن عثمان الطالي البساطي، أبو عبد الله شمس الدين اليه مالكي، من القضاة ولد في بساط (من الغربية بمصر) وانتقل إلى القاهرة ثم تولى القضاء بالديار المصرية (سنة ٨٢٣) واستمر ٢٠ سنة لم يعزل إلى أن مات بالقاهرة من كتبه المغني، وشفاء

الغليل في مختصر الشيخ خليل وحاشية على المطول، ومقدمة في أصول الدين راجع الأعلام للزركلي) (٥/ ٣٣٢).

٨. تاريخ الخلفاء، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (١/ ٣٥٣) تحقيق حمدي الدمرداش، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز ط١: (١٤٢٥هـ- ٢٠٠٤م) وشذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد الفكري الحنبلي أبو الفلاح (٨/ ٤٨٧) و(٩/ ١٧)، تحقيق: محمود الأرناؤوط، الناشر: دار ابن كثير دمشق- بيروت ط١: (١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م).

٩. ترجمته في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي، (٣/٨).

١٠. جانبك الصوفي الظاهري: أحد المقدمين، وصاحب تلك الوقائع والحروب، فر من محبسه بالإسكندرية، وأعيا السلطان تطلبه، وامتحن جماعة بسببه إلى أن ظهر عند ابن دلغادر مات في الأخر سنة إحدى وأربعين واختلف في سبب قتله، وكان فيما قاله المقريزي "ظالماً عالياً جباراً لم يعرف بدين ولا كرم". راجع الضوء اللامع (٥٧/٣).

١١. راجع ترجمته في قوات الوفيات لمحمد بن شاكر، الملقب بصلاح الدين (٣/ ٢٠٣) تحقيق احسان عباس الناشر دار صادر بيروت طا (١٩٧٤م)، وأيضًا النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ليوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الخلفي (٧/ ٢٩٢) النشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي مصر، طبعة سنة (١٩٦٣م).

١٢. السخاوي (٣١- ٩٠٢ هـ= ١٤٢٧- ١٤٩٧م) هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد شمس الدين السخاوي مؤرخ حجة، وعالم بالحديث والتفسير والأدب أصله من سفا (من قرى مصر) ومولده في القاهرة، ووفاته بالمدينة من مصنفاته: الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع، وشرح ألفية العراقي، والجواهر المكللة في الأخبار المسلسلة، وغير ذلك راجع: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، لمحمد بن محمد الغزي نجم الدين (٥٣/١) تحقيق: خليل منصور الناشر: دار الكتب العلمية- بيروت، ط١: (١٩٩٧م)، والأعلام للزركلي (٦ / ١٩٤).

١٣. سرياقوس: أحدى قرى مركز الخانكة التابع لمحافظة القليوبية بجمهورية مصر العربية راجع ترجمة برسباي في ديوان الإسلام لشمس الدين المعالي محمد بن عبد الرحمن بن العربي (٢٠٢/١)، تحقيق سيد كروي حسن الناشر دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان ها (١٤١١هـ– ١٩٩٠ م) و النجوم الزاهرة، الابن تغري بردى (١٣٣/١٥).

١٤. السلوك لمعرفة دول الملوك، لأحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي تقي الدين المفريزي، (٢/ ٣١٣)، تحقيق: محمد عبد القادر عطاء الناشر: دار الكتب العلمية– لبنان بيروت، ط١ (١٤١٨هـ– ١٩٩٧م).

١٥. سمى هؤلاء جراكسة أو شراكسة نسبة إلى بلاد الشركس وهي بعض بلاد الكرج "جورجها بين بحر قزوين والبحر الأسود ينظر المرجع السابق، (٢٢٧/٥).

١٦. الضوء اللامع (٩/ ٢٩١) وستأتي ذكر الأحداث كاملة عن الحديث عن موقفه من ابن عربي في الفصل الخامس إن شاء الله تعالى.

١٧. العصر المماليكي في مصر والشام للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور (ص١٢٣) الناشر: دار النهضة العربية، ط٢: (١٩٧٦م).

١٨. العصر المملوكي، للدكتور مفيد الزيدي (ص ١٠٧–١٠٨)، الناشر: دار أسامة للنشر والتوزيع– عمان، الأردن، طبعة سنة (٢٠٠٩م).

١٩. قبرس: وهي جزيرة في بحر الروم وبأيديهم دورها مسيرة سنة عشر يوما راجع معجم البلدان الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (٤/ ٣٥٠) الناشر: دار الفكر– بيروت بدون تاريخ.

٢٠. محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي الشهير بـ محيي الدين بن عربي، أحد أشهر المتصوفين لقبه أتباعه وغيرهم من الصوفيين» بالشيخ الأكبر»، ولذا تُنسب إليه الطريقة الأكبرية الصوفية .ولد في مرسية في الأندلس في شهر رمضان عام ٥٥٨هـ الموافق ١١٦٤م قبل عامين من وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني .وتوفي في دمشق عام ٦٣٨ هـ الموافق ١٢٤٠م، ودفن في سفح جبل قاسيون..

٢١. المعزة فيما قيل في المرقاء لشمس الدين محمد بن على ابن طولون (ص٣، ٤) الناشر: مطبعة الترقي– بدمشق (١٣٤٨هـ)، الجزء الأول، ص٤٢٦.

٢٢. المقريزي (١٧٦٦– ٨٤٥ هـ/ ١٣٦٥– ١٤٤١م): هو أحمد بن علي بن عبد القادر أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي مؤرخ الديار المصرية. أصله من بعلبك ونسبته إلى حارة المقارزة من حارات بعلبك في أيامه ولد ونشأ ومات في القاهرة، من مصنفاته: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ويعرف بخطط المقريزي، والسلوك في معرفة دول الملوك، وتاريخ الأقباط، وغير ذلك. راجع: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للقاضي العلامة محمد بن علي الشوكاني) (٧٩/١). الناشر: دار الكتاب الإسلامي. القاهرة. بدون تاريخ. والأعلام للزركلي (١٧٧/١).

٢٣. موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لأحمد شلبي، (٢٢٦/٥)، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، ط٧: (١٩٨٦م)، ص٩٦.

٢٤. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي، (١٦٨/١٢).

٢٥. النجوم الزاهرة (٢١٥/١٥)، والضوء اللامع (٢٩١/٩).

٢٦. موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لأحمد شلبي، مرجع سابق، ص٩٨.

٢٧. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (٢٠٠٢) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر المكتبة المصرية– لبنان بدون، الجزء الأول، ص٣٧٩.

٢٨. النجوم الزاهرة (٢١٤/١٥)، والبدر الطالع (٢٦٠/٢).

٢٩. الضوء اللامع (٢٩١/٩) شذرات الذهب (٢٤١/٧)، والأعلام (٤٧/٧).

٣٠. العصر المملوكي، د/ مفيد الزيدي، الناشر: دار أسامة للنشر والتوزيع – عمان، الأردن، طبعة سنة (٢٠٠٩م)، ص٦٣.

٣١. النجوم الزاهرة (٢١٥/١٥)، والضوء اللامع (٢٩١/٩).

٣٢. طبقات الحنابلة، لأبي الحسين بن أبي يعلى، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة– بيروت، بدون تاريخ، ص٤٢.

٣٣. العصر المملوكي، د/ مفيد الزيدي، الناشر: دار أسامة للنشر والتوزيع – عمان، الأردن، طبعة سنة (٢٠٠٩م)، ص٦٣.

٣٤. عصر سلاطين المماليك، للدكتور قاسم عبده قاسم، الناشر: دار الشروق، الطبعة الأولى: (١٩٩٤م)، ص٨٩.

٣٥. الضوء اللامع (٢٩١/٩) شذرات الذهب (٢٤١/٧)، والأعلام (٤٧/٧).

٣٦. عصر سلاطين المماليك، للدكتور قاسم عبده قاسم، مرجع سابق، ص٨٩.